جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة – تكريت – كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم العلوم التربوية والنفسية

(الفلسفة المثالية)

المرحلة الرابعة

في

قسم العلوم التربوية والنفسية

أستاذ المادة
الأستاذ المساعد الدكتور
معد صالح فياض

الفلسفة المثالية

الفلسفة المثالية من أقدم الفلسفات في الثقافة الغربية والتي يمتد تأثيرها حتى عصرنا الحاضر، حيث يلاحظ أنها قد أثرت في كثيرٍ من النظم التربوية والتعليمية في العالم. وترجع نشأة الفلسفة المثالية إلى كتابات المفكر اليوناني أفلاطون الذي يعتبر أباً للمثالية (٤٢٩-٣٤٧ق.م) ثم "ما لبثت أن أصبحت خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر من أكثر الفلسفات انتشاراً وذيوعاً وربما يعود ذلك لكونها من أقرب الفلسفات للديانات السماوية." (محمد، ٢٠٠٣م، ص: ٧٠) ولقد مثل الفكر المثالي واحداً من أهم الأصول العقدية الفلسفية للتربية واستقي منه عدد من التطبيقات التربوية التي لايزال العمل ببعضها قائما حتى عصرنا هذا. والمثالية Idealism مأخوذة من المثال وتعني في اللغة الإغريقية الصورة أو الفكرة ويعرفها لالاند lalande ( ) في معجمه الفلسفي بأنها " الاتجاه الفلسفي الذي يرجع كل وجود إلى الفكر بالمعنى الأعم لهذه الكلمة. وبمعنى آخر هي المذهب الذي يقول أن الأشياء الواقعية ليست شيئاً آخر غير أفكارنا نحن، وأنه ليس هناك حقيقة إلا ذواتنا المفكرة أما وجود الأشياء فقائم في أن تكون مدركة عن طريق هذه الذوات ولا حقيقة لها وراء ذلك" (شبل وآخرون ٢٠٠١م،ص٢٢٣). ويتم ذلك عن طريق الحدس والإلهام وإن الحقائق التي تدرك بالعقول أكثر من الحقائق التي تدرك بالحواس، إنها رؤية شاملة للكون باستخدام العقل .(جعنيني ٢٠٠٤م،ص: ١٠٧) وهناك من يرى أن "الفلسفة المثالية تعني بوجه عام الاتجاه الذي يرجع الوجود إلى الفكر، أي أن الواقع الطبيعي الذي نعيشه ويحيط بنا هو روحي في أساسه. فالواقع الطبيعي ليس له وجود مطلق وإنما هو ظواهر لواقع روحي، وبالتالي فالمظهر الخارجي للإنسان ليس حقيقته إنما الروح هو حقيقته وجوهره أي أن الروح أو العقل هو العالم الحقيقي أما الأشياء في العالم الطبيعي إذا كانت أشباح أو ظلال لعالم المثل فإن هذه الأشياء لا وجود لها إلا بمقدار إدراك العقل لها واقترابها من عالم المثل" (محمد ،٢٠٠٣م، ص: ١٢٨) وهي مذهب فلسفي يؤمن معتنقوه بوجود أفكار عامة ثابتة ونهائية وهي جوهر الكون وحقيقته وقد أوجد هذه الأفكار عقل عام أو روح عامة وهي كل ما هو حقيقي. كما يؤمنون بأن عالم المادة عالم الخبرات اليومية عالم غير حقيقي لأنه يتميز بالتغير وعدم الاستقرار، ولكن هذه المادة لا يدركها الإنسان بحواسه، وصيغت على مثال وجد في الفكر، والعقل وحده هو الذي يحكم على مدى مطابقة المادة لتلك المثل. (ناصر ،٢٠٠١م ،ص:٢٤٣)

النشأة التاريخية للفلسفة المثالية: الفلسفة المثالية من أقدم الفلسفات في الثقافة الغربية، وترجع جذورها التاريخية إلى الفيلسوف الإغريقي أفلاطون (٤٢٩-٣٤٧ ق.م) الذي اعتبره مؤرخو الفلسفة ونقادها أباً لها على الرغم من وجود فكر فلسفي وفلاسفة قبله. لقد آمن بالثنائية، أي بوجود عالمين: العالم الحقيقي وهو عالم الأفكار العامة الحقيقية الثابتة (عالم المُثل)، والعالم

الآخر وهو عالمنا الذي نعيش فيه وهو ظل للعالم الحقيقي (الرشدان وآخرون ١٩٩٧م ص:٥٩،ص:٦٠). والفلسفة المثالية نشأت ملائمة لعصرها، فالنظام الاجتماعي – الاقتصادي الذي كان قائماً في مدينة أثينا في ذلك الوقت كان قائماً على التقسيم الطبقي للمجتمع إلى ثلاث طبقات: طبقة الأحرار، المحاربين، والعبيد. وكانت التربية الحرة مقصورة على الأحرار التي لا تنظر نظرة احترام إلى العمل اليدوي. وكان لهذه الفلسفة تأثير كبير على حياة الشعوب، وساعدت الديانتان اليهودية والمسيحية على انتشار الأفكار المثالية على نطاق واسع. ولا يزال أثرها قوياً في أعمال المفكرين والأدباء ورجال الإصلاح والسياسيين ورجال التربية.(جعنيني ٢٠٠٤م،ص: ١٠٨) وإضافة إلى المذهب التقليدي للمثالية الموضوعية والذي كان الفيلسوف اليوناني أفلاطون أبرز روادها فإن الفلسفة المثالية لها صور متعددة من أهمها: ١– المثالية الذاتيةsubjective idealism : وتفسر العالم المادي تفسيراً عقلياً روحياً، إذ ترى أن الوجود هو الإدراك، فوجود الشيء يعني أننا ندركه. والمادة لا تدرك في ذاتها، وتنكر وجود المحسوسات، فهي لا تحول الأشياء إلى معان بل إنها تحول المعاني إلى أشياء ومن ممثليها "باركلي". ٢– المثالية النقديةcritical idealism : ومن روادها "كانط" الذي دحض المثالية الذاتية، إذ بين في كتاباته التمييز الدقيق بين الظواهر العقلية على كل تجربة والظواهر المكتسبة بالتجربة، ويرى أن المعرفة لا تستقي من المحسوسات وحدها ولا من العقل وحده، ولكن الحس ينقل للعقل صور المحسوسات فيضيف إليها علاقات زمنية أو مكانية، ومن هنا أضاف "كانط" العقل إلى التجربة كمصدر من مصادر العلم. ثم هناك المثالية المطلقة التي قال بها "هيجل" وأخذها عنه "برادلي" الإنجليزي، ثم المثالية الجديدة وهي التي دعا إليها في إيطاليا "كورتشه". ثم المثالية الشخصية عند "سور لي".(جعنيني ٢٠٠٤م،ص: ١٠٨–١٠٩)

رواد الفلسفة المثالية : هناك عدد من الفلاسفة ينظر إليهم كرواد ورموز للفلسفة المثالية في صورها المتعددة ولازالت أقوالهم الفلسفية ذات أثر عميق في التاريخ الفلسفي الإنساني ليس ذلك في المجال التربوي فقط ولكن في شتى المجالات ومن أبرزهم على الإطلاق يأتي: أفلاطون ٤٢٩–٣٤٧ ق.م: ولد في مدينة أثينا أو في أجينا في أسرة أرسطقراطية، ونال حظاً عالياً من الثقافة من علم وأدب وشعر وفلسفة، إلا أن ميله كان لعلم الرياضيات، وقضى معظم حياته يؤلف ويفكر في العلم والسياسة والتربية ويمهد لها بالفلسفة. وقد تتلمذ أفلاطون على يد العديد من الفلاسفة ومنهم سقراط الذي كان له أثر كبير على فكره وحياته. أنشأ أكاديميته في أثينا عام (٣٨٧) ق.م والتي كانت عبارة عن جامعة حفظت تراث اليونان الثقافي من هوميروس إلى سقراط، وبقي في الجامعة يعلم عن طريق الحوار والجدل، ومارس الكتابة قرابة أربعين عاماً ونشر أفكاره التربوية في كتابيه "الجمهورية" و"القوانين" التي كانت مشتقة من فلسفته وبالأخص

أفكاره في طبيعة الدول والمواطنة فيها، فوضع بذلك نظاماً تربوياً شاملاً يكشف عن مواهب الفرد من أجل تحقيق العدالة والفضيلة في المجتمع، ويرى أن المدينة الفاضلة التي تصورها تمتاز بصفات الحكمة والعدالة والعفة والشجاعة. (شفشق ١٩٨٢م ص:٣٣٢) وسعى من وراء نظريته في الأفكار "نظرية المثل" إلى إيجاد المسكن الحقيقي للروح، فالحقيقة عنده هي الأفكار وهي مصدر تشابه الأشياء، إنها المثل الأبدية الثابتة القائمة في أساس الظواهر الطبيعية. واعتقد أن الأشياء ماهي إلا نسخ ناقصة لمثل كاملة لا يمكن معرفتها إلا عن طريق العقل فالعقل أزلي وكوني لأنه يعمل في أشياء أزلية وكونية وهو الذي يوصلنا إلى المعرفة الحقيقية. لقد كان أول فيلسوف تناول المسائل الرئيسية في الفلسفة من كون ومعرفة وأفكار ووضعها في نظام متماسك، ويعتبره البعض ملك الفلاسفة، وكان يأمل أن تلعب فلسفته دوراً قوياً في السياسة. (جعنيني ٢٠٠٤م،ص:١١١) وركز على العقل وحده دون الحواس، ويعتبر أن التخصص وتقسيم العمل أساس الحياة الاجتماعية، وخرج بنظريته في كتاب "الجمهورية" والتي ترتكز على التخصص في التربية وعلى بناء مدينة فاضلة. كما آمن أفلاطون بقدرة التربية على علاج الفساد والتغيير للأفضل وتبدأ منذ الطفولة، لكن يلاحظ أن آراؤه واتجاهاته طوبائية بعيدة عن الواقعية الاجتماعية وغير متناسقة في إطار فكري ينظمها ويحويها، وقد ارتبط المذهب المثالي التقليدي باسمه وسميت مثاليته بالمثالية الإلهية.(التل وآخرون ١٩٩٣م:ص١٧٩) وبعد عصر النهضة والإصلاح الديني الذي حدث في الغرب ومنذ القرن السادس عشر، أصبحت المثالية من أكثر الفلسفات ذيوعاً وانتشاراً، ويرجع الفضل في ذلك إلى مساهمة عدد من الفلاسفة فيها مثل رينيه ديكارت الفرنسي (١٥٦٩-١٦٥٠م). رينيه ديكارت ١٥٦٩-١٦٥٠م: يعد هذا الفيلسوف من الفلاسفة المثاليين على الرغم من أن جزءاً كبيراً من فلسفته تقع في نطاق الفلسفة الواقعية، فمنذ ريعان شبابه كان يحاول التوصل إلى معارف بشأن الإنسان والكون، ولكن تعمقه في دراسة الفلسفة أوصله إلى قناعة بجهله الكامل عن الوصول إلى معارف أكيدة. نشر معظم كتابته في كتاب "مبادئ الفلسفة" عام (١٦٣٧م)، وارتبط اسمه بمذهب الشك المنهجي الذي من خلاله يتوصل الباحث والدارس إلى اليقين، فأعطى قيمة للشك باعتباره نوعاً من التفكير، وأن التفكير ما هو إلا وجود، ووصل إلى المبدأ الآتي وهو "أنا أفكر إذاً أنا موجود" أي أنه إذا انعدم التفكير انعدم الوجود. واعتقد أن الحقيقة قائمة في العقل ولا وجود لها خارجه، فمعرفة الأشياء الخارجية تكون بالذهن لا بالحواس، ولكنه يؤكد أن الفكر ليس سبباً في خلق الوجود على نحو ما يراه بعض المثاليين، إذ إنه فصل بين العقل والمادة وبين الفكر والوجود كما فعل أفلاطون. (جعنيني ٢٠٠٤م،ص:١١٣) جورج باركلي ١٦٨٥-١٧٥٣م: هو أسقف ايرلندي تبدأ فلسفته بالروح والعقل، وناضل باركلي ضد المادية لأنها تتعرض للإيمان. ويعتبر من ممثلي المثالية المتطرفة لأنه أنكر في كتابه "مبادئ المعرفة الإنسانية" وجود المادة متذرعاً باستحالة إدراك الأشياء

المادية. فمثاليته مثالية ذاتية ترى وجود الشيء في إدراكه وأن الأشياء ليس لها وجود مادي مستقل عن الذوات التي تدركه، وهو بهذا قريب من ديكارت في مثاليته المنهجية عندما اعتبر وجود الله هو الأساس في وجود العالم. (جعنيني ٢٠٠٤م،:ص١١٤) ويعد باركلي من رواد (المثالية السيكولوجية) أو (المثالية المادية) أو ما يسمى (المثالية الخارجية) والتي توقف وجود العالم الخارجي على الذات العارفة. إيمانويل كانط ١٧٢٤-١٨٠٤م: من مشاهير الفلاسفة المحدثين، ويرى بعض المؤرخين والنقاد أنه عملاق الفلسفة الحديثة ومؤسسة الفلسفة النقدية وزعيم للمدارس المثالية الألمانية. لقد عمل أستاذاً للفلسفة في جامعة لكسمبورغ، وكان جوهر فلسفته الإيمان بوجود مفاهيم قبل التجربة أو خارجة عن نطاقها وهذا ما يشبه عالم الأفكار عند أفلاطون. ويرى أن الحواس والعقل يلعبان دوراً كبيراً في المعرفة مؤكداً مغالاة الفلاسفة العقلانيين في دور العقل ومبالغة التجريبيين في الوقوف فقط عند تجاربهم الحسية. أرجع كانط كل شيء للإيمان وأن القدرة على المعرفة هي من عند الله، وآمن بخلود الروح وبالضمير الحي واعتبرها مسلّمات لفلسفته واختلف مع الفلاسفة المثاليين في جعل العقل باطناً في المادة، فالعالم الحسي لا يستطيع الوقوف على أرجله وحده فهو بحاجة مستمرة إلى أضواء المعرفة العقلية. (جعنيني ٢٠٠٤م:ص١١٥,١١٦) وتتسم الفلسفة المثالية لديه بأن لها صفتان رئيستان: الأولى أنها مثالية نقدية لأنها وجهت اهتمامها إلى وضع حدود للعقل وطالبت بألا يتعداها إلا في حدود التجربة الممكنة . الثانية أنها شارطة لأنها تضع الشروط الأولية التي تجعل التجربة ممكنة وهي شروط عقلية يضعها العقل دون الاعتماد على التجربة مثل مفهوم المكان والزمان والسببية وهي أطر عقلية تنظم المعرفة التي تأتي عن طريق حواس الإنسان. (جعنيني ٢٠٠٤م:ص١١٥) هيغل (١٧٧٠-١٨٣١م): ولد في ألمانيا في مدينة شتوتغارت ومارس تدريس الفلسفة في عدة جامعات، وقد اعتمد على كانط كثيراً وكان لفلسفته تأثير كبير على الكثير من الفلاسفة الماديين. دافع في كتاباته عن وجود حقيقة خارجة عن تجارب الإنسان، وأن كل ما يفعله البشر ما هو إلا نتاج لنشاط العقل المطلق الذي يعتمد عليه عالم البشر الحسي، وهو لا يعتقد بوجود حقيقة خارج أو فوق العقل الإنساني، فكل معرفة هي معرفة إنسانية. آمن هيجل بالتطور الجدلي للأفكار، فكل فكرة تبنى على فكره أخرى أقدم منها، ويعتبر الفلسفة هي العلم الأكثر سمواً للعقل فهي مرآة روح العالم. وجاءت كتاباته كرد فعل ضد المثالية الذاتية والتي تؤمن بوجود عقل مطلق في الطبيعة. (جعنيني ٢٠٠٤م:ص ١١٦-١١٧) ومن ممثلي الفلسفة المثالية أيضاً،كروتشه، جنتلي، كواريدج، وكارلايل والذين لا يتسع المجال لذكرهم جميعاً. أسس ومبادئ الفلسفة المثالية : لكل فلسفة من الفلسفات عدد من المبادئ والركائز التي بنيت عليها وفي ضوئها برزت عدد من التطبيقات التربوية لها والتي جاءت مؤكدة للنظرة الفلسفية لرواد المثالية في قضايا الوجود والمعرفة والقيم والطبيعة البشرية. وقد ذكر مقداد يالجن (٢٠٠٨م ،فيما يتعلق بنظرتها إلى الوجود

والمعرفة والقيم والطبيعة البشرية ولها تصور خاص لكل قضية من هذه القضايا الأربعة يتلخص في النقاط التالية: ١- أساس الوجود أو التصور عن الكون: المثالية تعترف بوجود عالم روحاني إلى جانب العالم المادي وينسحب هذا على وجود الإنسان وأنه مكون من المادة والروح وعنايتهم بالعالم الروحاني أكثر من العالم المادي لأن العالم الروحاني يعني المثالي هو الأساس والعالم المادي ظل له، وتستهدف الوصول بالإنسان إلى هذا العالم والسمو إليه بتربية خاصة بالتربية الروحية وتأخذ هذه التربية أكبر اهتمام من هذه النظرية من اهتمامها بالجوانب الأخرى من التربية مثل التربية الصحية والجمالية والفنية وغيرها. ويرى مرسي أن المثالية تنظر إلى العالم على أنه عالم العقل والروح وليس عالم الواقع، وأن هذا العالم قد رسمته عقولنا وأرواحنا. وهكذا تختزل المثالية الكون بكل ما فيه إلى عنصر واحد هو "الروح أو العقل" التي يجب أن تفهم على أنها التجرد الكامل من المادية. (مرسي، م١٩٩٣،ص: ١٦٣). وتنظر الفلسفة المثالية أيضاً إلى طبيعة العالم نظرة ازدواجية حيث قسم أفلاطون العالم إلى قسمين: عالم علوي سماوي (عالم الحقيقة المطلقة والمثل المطلقة): يحوي المثل العليا من الخير والحق والجمال، ويوجد فيه العدل المطلق، والحقيقة المطلقة، والقيم المطلقة، وهذا العالم أزلي خالد غير قابل للتغير، وسيظل هكذا على الدوام ولا يمكن إدراكه إلا عن طريق العقل وعالم المثل أرقى من عالم الواقع. عالم سفلي (عالم المادة أو عالم المحسوسات): عالم الواقع المتغير، ندركه بحواسنا، وهو عالم مضطرب متحول ونهايته الفناء، عالم غير حقيقي من صنع العقل وتصوره. (محمد، ٢٠٠٢،ص: ٧١) ٢- أساس الطبيعة البشرية: ترى المثالية أن الإنسان وإن كان فيه جانب مادي فالروح هي الأساس. فالروح لا تفنى وأما الجسم سوف يفنى. (يالجن، ٢٠٠٨م، ص:٥٥-٥٤) "فالمثالية تنظر إلى الإنسان نظرة ثنائية، أي أنه نفس وجسم، وأن النفس جاءت من عالم المثل، وحلت في الجسم لتقضي حكماً بالسجن صدر عليها، وبعد الموت ستعود مرة أخرى إلى عالم المثل". (فرحان، ١٩٨٩م، ص:٤٧). ووفقاً لهذه الفلسفة "فالإنسان مؤلف من جوهرين أحدهما ينتسب إلى عالم المثل وهو النفس، والآخر ينتسب إلى عالم الحس وهو البدن، وبما أن النفس من عالم المثل فهي إلهية أزلية أبدية، وهي أسبق في وجودها في البدن وتبقى بعد الموت.(الجعفري، ٢٠١٠م،، ص:٢٥-٢٦) "ونجد أن أفلاطون قد فصل في النفس الإنسانية بشكل أكبر، فهو يرى أن النفس تتكون من ثلاثة أنواع من القوى أو القدرات أو الملكات هي: قوة العقل وقوة الغضب، وقوة الشهوة. وباختلاف الأفراد في القوى يختلفون في المهن التي يصلحون لها. فحيث يكون للعقل الغلبة، فصاحبه يصلح للمهن التي تتطلب الدرس والتحصيل والتفكير. وحيث تتغلب الإرادة فالمهن التي تصلح لها أعمال تتطلب القوة كالشرطة والحرب. أما حيث تسود الشهوات، فخير ما يصلح لها المهن التي تتطلب التجارة والإنتاج حيث الربح وتتحقق الذات الشخصية". (النوري، ١٩٧٩م، ص:١٥٠) ووظيفة التربية حسب هذه الفلسفة هي التنمية الروحية، وتهتم هذه الفلسفة

بالتربية العقلية والأخلاقية والإيمانية، أي الإيمان بالله وبالعالم المثالي، والتربية الأخلاقية تعين الإنسان على تزكية النفس والتخلص من النيات والغايات السيئة. (يالجن، ٢٠٠٨م ، ص:٥٥-٥٤) ٣- الأساس المعرفي وطبيعة المعرفة في الفلسفة المثالية : المثالية حسب فلسفتها المبدئية في تقسيم العالم إلى العالم العلوي المثالي والعالم السفلي المادي الحسي ترى أن مصدر المعرفة أساساً السماء أو العالم المثالي عالم الأرواح، وترى أن الإنسان يعني روح الإنسان قبل أن تحل وتنزل في جسم الإنسان كانت تعرف المعارف ومزودة بالمعارف ولكن لما نزلت إلى الجسم نسيت المعلومات وتذكر المعلومات بالتدريج حسب النمو ومساعدة أدوات الحواس أو أجهزة المعرفة في الجسم. ويرى اليماني أن المعرفة لدى المثاليين نوعان: معرفة حقيقية أزلية الأفكار أداتها العقل، فالحقيقة النهائية والمعرفة المطلقة موجودة في العالم العلوي، وهي عبارة عن الأفكار العامة الثابتة والشاملة والمثل النقية الأزلية وهي خالدة لا تتغير ووظيفة العقل هي البحث عن المعرفة الحقيقية المطلقة. (اليماني، ٢٠٠٤م:ص ٦٣). معرفة متغيرة حسية أداتها الحواس: فالحواس ترتبط بالعالم المادي الحسي وهو عالم متغير متقلب زائف، والحواس غير قادرة على معرفة الحقيقة وإدراكها، كونها غير صادقة في إدراكها ولا تدرك سوى الأمور المتغيرة ومظاهر الأشكال، بينما المعارف الحقيقة الثابتة الموجودة في عالم المثل لا يدركها إلا العقل وهو يستمد ثباته وخلوده منه. والعقل هو الذي يدرك المعارف الحسية المتغيرة ويحولها إلى صور ومعاني ويسوغها في أفكار مدركة. (العمايرة، ١٩٩٩م، ص:٢١٦) ويمكن تلخيص آراء المثالية حول المعرفة في: ١- المعرفة مستقلة عن الخبرات الحسية ولا تستمد منها، ويؤكد أفلاطون على أن المعرفة المكتسبة عن طريق الحواس هي معرفة غير أكيدة. ٢- المعرفة الحقيقية هي نتاج العقل وحده لأن العقل بحكم طبيعته يحول فوضى المادة إلى تأمل الترتيب والوضوح الذي تتسم به النماذج الأصلية النقية. فالحقيقة تكمن في أفكار العقل وليس في العالم الفيزيائي. ٣- بعض المثاليين ومنهم أفلاطون يعتقدون أن المعرفة هي عملية استدعاء لها من عالم الروح، والأفكار لها وجود مستقل في عالمها الذي تنتمي إليه "عالم المثل". أما المثاليون في العصر الحديث ومنهم باركلي فيرون أن الإنسان قادر على معرفة ما يدركه فقط، وهذا يعني أن معرفته تتمثل في حالته العقلية فقط، فالوجود يتوقف على العقل. ٤-المعرفة لدى المثاليين بديهية وفطرية، فالإنسان مولود وفي عقله مقولات أساسية أو أفكار موروثه لا تحتاج إلى تجربة أو حواس للتأكد من صحتها. (بدران وآخرون ،٢٠٠١م،ص:١٣١) ٥-المعرفة ثابتة لا تتغير على الرغم من تغير الظروف الاجتماعية والثقافية، والمعرفة أيضاً يقينية لا تقبل الشك لأن مصدرها العقل ويرون أن المعرفة عامة بين جميع البشر. (بدران وآخرون، ٢٠٠١م، ص:١٣١-١٣٢ بتصرف) ٦- يرى الفيلسوف هيجل أن المعرفة تكون صحيحة إلى الحد الذي تشكل فيه نظاماً، وكلما كان هذا النظام أكثر شمولاً كانت الأفكار الذي يتضمنها أكثر اتساقاً. فالمعرفة